

المبحث الرابع

• ما الذي قام الإسلام ضده؟ •

لا يجد القارئ لكتاب الدكتور مراد هوفمان « الإسلام عام ٢٠٠٠ » تطابقاً بين عنوان مبحثه الرابع « ما الذي قام الإسلام ضده؟ » وبين ما كتبه تحت هذا العنوان .

لأن ما كتبه على امتداد سبع صفحات يصلح أن يكون موضوعاً لعنوان آخر ، هو مثلاً : « صور متنافرة في حياة الغرب اللاديني » .
لأننا نرى المؤلف يسرد أوضاع أوروبا المعاصرة من الداخل ، أوضاعها في المعتقد ، وأوضاعها في الأخلاق والسلوكيات اليومية .

في الاعتقاد يذكر المؤلف أن الاتجاه الغالب على شعوب الغرب هو عدم الارتياح لفكرة « الله » ، وهذا وصف صائب ، والأجيال المعاصرة في الغرب - الآن - معذرون في عدم ارتياحهم لفكرة « الله » ؛ لأنهم حرّموا من الوصول إلى معرفة الله على مدى تاريخهم الطويل ، وحرّموا من معرفة الدين الحق الخالص لله .

فقد دخلت المسيحية الغرب من أول عهدها ، وهي محرفة ؛ ولأن الكنيسة التي حملت إليهم عقيدة الإمبراطور الروماني الوثني ، التي فرضها على مجمع نيقية المسكوني عام ٣٢٥ م - لم تستطع أن تقيم دليلاً واحداً على صحتها . وإنما فرضتها بقوة النار والحديد .

ولو كانت أوروبا قد تلقت العقيدة الدينية كما أنزلها الله على المسيح لكان لها الآن من الدين موقف آخر غير ما تتردى هي الآن في دركاته المظلمة ، أضف إلى هذا اضطراب الأناجيل الأربعة - بعد إخفاء الأناجيل

الكثيرة القديمة - في عرض مسائل الدين .

فلا غرابة إذن أن يكون الاتجاه الغالب على تلك الشعوب عدم الاطمئنان لفكرة الإيمان بالله ، لا لأن هذه الفكرة تقبل الرفض ، ولكن لأنها عرضت عليهم على غير وجهها الصحيح .

وقد أصاب المؤلف حين أشار إلى أن بعض دعاة هذه الفكرة المحرفة في الإيمان بالله ، شككوا هم أنفسهم في ما يدعون إليه الناس ، ثم انفصلوا عن الكنيسة ، وبدلاً من أن يدخلوا في الإسلام آثروا أن يكونوا مثل من اتخذ إلهه هواه . [ص ٢٥] .

ويسوي المؤلف بين المجتمعات الصليبية ، والمجتمعات الشيوعية وإن كانت آفة الأولى الفشل الكنسي في عرض مسائل الإيمان عرضاً صحيحاً ، وآفة الثانية حبس فكرها في ما يدرك بإحدى الحواس الخمس (العلمانية) ، وكفرها بما عداه من أصول الإيمان الغيبية ، التي طريقها الوحي الأمين المصون من كل تحريف .

ويحدد المؤلف روافد الضلال الذي خيم على المجتمعات التي ضلت الطريق في الوصول إلى الإيمان الحق ، في تلك المذاهب التي نشأت في الغرب ، على أيدي كارل ماركس ، وتشارلز داروين وفريدريك نيتشه ، وسيجموند فرويد ، ومعهم - كما يقول المؤلف - كل الفلاسفة الوضعيين ، مثل أوجست كونت ، وجان جاك روسو وميكافلي وغيرهم .

ويشير إلى أن تركيا في عهد « أتاتورك » حذت حذو أوروبا في التنصل من الدين ، فهم يحتفلون بعيد الفطر بدون أن يصوموا رمضان كما أن المسيحيين في أوروبا وأمريكا يحتفلون بعيد الميلاد «الكريسماس» دون أن يجزموا بوجود الله أو المسيح . [ص ٢٦] .

إن أوروبا المسيحية اخترعت لها معبوداً غير الله ، وغير المسيح هو التقدم العلمي المادي ، الذي مهتت فيه .

ويسمي المؤلف هذا الإيمان المادي بالإيمان الأبله ، وأنه -مع الأسف- سيظل سائداً في تلك المجتمعات إلى حين [ص ٢٦] .

وأنهم سيحاولون فرض هذا الإيمان على العالم أجمع ، على أن المثل الأعلى فيه « نموذج الحياة الأمريكية المعاصرة ؟! » .

ويلتفت المؤلف إلى المسلمين ، ويحذرهم من الانسياق وراء هذا النموذج الغربي الماديّ، أو «اللاهوت العالميّ» ، كما يسميه المؤلف ، الذي سيواجه العالم الثالث ، فيقول : «إذا لم يرد العالم الإسلاميّ أن يعيش في تلك الثقافة الواحدة (العولمة) وجب عليه أن يبذل جهداً هائلاً ليحقق دار إسلام القرن الحادي والعشرين ، حيث تصبح كلمة الله قانوناً وتزدهر ثانياً الحضارة الإسلامية .

عالم يشعر فيه المسلم أنه في بيته ، ليس كمواطن ، ولكن كمؤمن عضو في الأمة الواحدة .

عالم يمارس فيه المسلمون التكنولوجيا بعد تهذيبها من الإنسانية .

عالم يصعد فيه المدح والثناء للواحد الأحد ، وله كل التسليم والخضوع» [ص ٢٧] .

وهذا إدراك طيب من المؤلف ، يبحث فيه المسلمين على الحفاظ على مقومات الشخصية الإسلامية للأمة ، التي أخرجت خير أمة للناس .

فبدلاً من الانصهار في بدعة « العولمة » التي تفقد فيها الأمة الإسلامية هويتها الدينية والثقافية ، عليها أن تقيم حصوناً مانعة ضد الغزو العولميّ « المزعم تصديره إلينا .

ومراده من «دار إسلام القرن الحادي والعشرين» هو الحرص الشديد على احتفاظنا بمقوماتنا الإسلامية في العقيدة ، والتشريع ، والأخلاق والثقافة، ثم الأخذ بأسباب النهضة في العلوم الحديثة، التي ملكها الغرب، وبسببها تفوق علينا في فقه الدنيا ، ثم تحكم بسبب فقرنا فيها في مصائرنا

ومقدراتنا ، ومن لم يملك دنياه فلن يملك دينه .

وكم كان موفقاً حين حدد وظيفة الفرد في هيكل الأمة ، رافضاً أن يقف دوره عند وصف « المواطن » لأن فكرة « الوطنية » مع ما لها من قوة ، فإن الاحتلال الأوروبي أراد منها تفتيت وحدة الأمة بتعصب كل جماعة يعيشون في وطن لوطنهم ، ضارين عرض الحائط بالانتماء إلى الأمة ، وبهذه السياسة الخبيثة مزقوا وحدة المسلمين ، ويسروا لأنفسهم وسائل اختراق حصونها ، وفرض إرادتهم عليها .

والى هذا المعنى أشار المؤلف بقوله : «عالم يشعر فيه المسلم أنه في بيته ، ليس كمواطن ، ولكن كمؤمن عضو في الأمة الواحدة» ، كما يحذر الدكتور هوفمان من عودة الإقطاع وطغيان الرأسمالية العاشمة ، التي تمكن أصحاب رؤوس الأموال من استعباد الأفراد ، وتشريع من القوانين ما يحمي مصالحها ، وفي ذلك يقول :

«عالم لا يستبد فيه الاقتصاد وكفاءة التشغيل والإنتاجية والتكنولوجيا العالية ، ومعدل التنمية والحصول على أقصى ربح ، وإنما تتحكم فيه متطلبات البشرية : المادية والروحية والعاطفية » [ص ٢٧] .

نظرة صائبة صادقة ، يطرحها المؤلف أمام العمل الإسلامي ليحمي المسلمون أنفسهم من طغيان « العولمة » الجارف ، الذي لن تكون عاقبته إذا لم نتحصن منه ، إلا محو هويتنا من الوجود ، ثم يختصر نصيحته في الفقرة الحكيمة الآتية :

«باختصار : إذا أردنا نحن - المسلمين - أن نترك وشأننا ، فعلينا أن نجاهد جهاداً جباراً لنحمي حقنا في الاختلاف الثقافي في عالم يسعى لفرض النموذج الغربي عالمياً ، وسوف يتطلب هذا إعادة تأسيس الفكر الإسلامي لمواجهة مد ما بعد الحداثة في كل الجبهات :

التعليم - الاقتصاد - الاتصالات - العلوم السياسية - القانون -

التكنولوجيا « [ص ٢٨].

وفيما يتصل بحوار جدي فعال بين الشمال والجنوب - يعني المسيحية والإسلام - يطرح الدكتور هوفمان بعض الصعوبات والسلبيات التي تجعل إمكانية إجراء ذلك الحوار نوعاً من اللهو الساذج، أو الضحك على الذقون.

أولى هذه الصعوبات : أن الغرب أفلح في تقليص المسيحية - موروثه التاريخي - فما الذي يجعله جاداً في حوار يجريه مع الإسلام ؟

والصعوبة الثانية : ما الذي يدفع الغرب إلى إجراء حوار مع الإسلام في أمور غير مادية - يعني غيبية وهي حقائق الإيمان - مع أن الغرب نجح في حذف تلك الأمور من أجندته ؟!

هاتان صعوبتان مركزهما الغرب نفسه ، أما الصعوبة الثالثة فمصدرها المسلمون أنفسهم ، وفي تصويرها يقول المؤلف : «ما الذي يجعل الغرب يأخذ ثقافة العالم الثالث مأخذ الجد إذا كان العالم الثالث - بما في ذلك كثير من المسلمين - اتخذوا الغرب قبلة ، وجعلوا من أنفسهم هجيناً كاريكاتورياً للغرب ؟! » [ص ٢٨].

ونضيف إلى هذه الصعوبات التي ذكرها المؤلف صعوبة أخرى بالغة الخطورة :

تلك الصعوبة هي : أن الغرب حاقد كل الحق على الإسلام ، شديد التعصب ضده ، لا يرضيه إلا زوال الإسلام ، أما التقارب من الإسلام ، فهذا بعيد المنال ، ولن ينسلخ الغرب الصليبي من تاريخه الطويل عن دينه الموروث ، مهما وجهت إليه من نقود ؛ لأن في ذلك انتصاراً للإسلام ، وتسفيهاً لعقولهم ، فكيف يسمحون بهذا الانتصار لأعدى أعدائهم ، إنهم سيظلون يجحدون فطرية الإسلام وصحته ، وإن استيقنت أنفسهم أنه دين الله المصون من كل تحريف وتبديل .

إننا نكون في قمة السعادة حين يكف الغرب عن إساءاته المتعمدة للإسلام ، واعتداءاته الغاشمة على المسلمين ، وبخاصة الأقليات والدول التي كانت ترزح تحت وطأة الإلحاد الأحمر ، والدول التي لم تدر في فلك قوى الغرب الكبرى .

ولما كان الغرب الحديث قد اتخذ التقدم الحضاري المادي إلهاً يعبد من دون الله ، وعبادة هذا الإله الوهمي هي الأنانية والإغراق في الشهوات ، لما كان الحال كذلك في الغرب الحديث أرجع المؤلف مبررات مشول هذا الإله في أذهان الغربيين إلى عنصرين هما أبو وأم هذا الإله : أحدهما : العقل المنفصل عن الدين جملة وتفصيلاً .

وثانيهما : العلم الوضعي ، المدرك بإحدى الحواس الخمس .

ثم أخذ المؤلف يسوق قواطع الأدلة والبراهين على عجز العقل والعلم وحدهما عن تحقيق السعادة الحقة للناس في الغرب ، وفي كل مكان .

يقول في عجز العقل : «لم يستطع الناس أن يتحققوا أن الحكم المستنير للعقلانية والإنسانية لم يمنع حريين عالميتين وحشيتين ، استخدم فيهما القنابل الغاز ، والقنابل النووية ، والقصف الاستراتيجي على المدنيين في مدن ، مثل درسدن .

وهل رأى العالم جرائم أسوأ مما ارتكبه ستالين في الاتحاد السوفيتي ضد شعبه ؟ ! .

وما ارتكبه الألمان والفاشيون ضد اليهود وغيرهم ؟ ! .

وهل استراتيجية مبنية على الردع المتبادل ، مع التهديد بالإبادة تعتبر عقلانية ؟ ! « [ص ٢٩] .

وفي عجز التقدم الحضاري المادي عن تحقيق أخلاق فاضلة ، تنعم بها البشرية يقول المؤلف :

«يمكن للمفكرين الغربيين أن يستنتجوا . . أن الأحداث الرهيبة للقرن الحالي نفت إمكانية أن تعتمد الأخلاق على التقدم .

تسليم الإنسان للأوامر الأخلاقية الإلهية - ولا شيء غير ذلك - يمكن أن يضبط الأعمال الأخلاقية للأفراد والجماعات » [ص ٢٩] .

هذه شهادة من رجل رضع مع مولده ألبان الحضارة الغربية ، ونشأ في أروقتها وترعرع ، وعاشها من الداخل بكل حواسه وبقلبه وعقله ، فهو يتحدث عنها حديث خبير .

وها هو ذا يزنها ويقومها ويحكم عليها ، إنها لا يسوغ الاعتماد عليها بعيداً عن الدين .

وهي عاجزة كل العجز في تحقيق النموذج الأعلى في مجال الأخلاق والسلوك ، فضلاً عن غرس العقيدة الصحيحة في القلوب :

«حضارة ضلت فأضلت ، وعمت فأعمت ، فكانت أصلح البيئات لإدمان الكحوليات والمخدرات ، الشذوذ المعلن ، الإساءة للأطفال ، ارتفاع معدلات الطلاق (إن كان هناك زواج من الأصل) ، الإباحية الشديدة، وقد يكون الأسوأ في ذلك اتجاه الشباب ليعيشوا فرادى رجالاً ونساء ، ولا يستطيع أحد حتى الآن أن يقدر حجم الخسارة لجيل نشأ بدون أحد والديه» [ص ٣١] .

ذكر المؤلف هذه المثالب المنتشرة في مجتمعات الغرب ، كشواهد على فشل الحضارة المادية ، التي قامت على دعائمي العقل والعلم الوضعي .

ونحن نضيف إلى ما ذكره ما وصل إليه الغرب من بهيمية عمياء متمثلة في زواج المحارم ، وزواج الذكور بعضهم ببعض .

لقد أفسدت تلك الحضارة الفطرة السليمة ، التي فطر الله الناس عليها، فصاروا عبيداً لشهواتهم الدنيئة ، التي ترفع عنها أخس السوائم .

واستبدل كثير من بنيتها الاقتران الجنسي بين الذكور والإناث بالزواج الرسمي الموثق بمعرفة رجال الدين . وتفوقت مجتمعاتها في الدناءة والانحطاط على الشعوب البدائية والهمجية فتعسّأ لها من حضارة كافرة كنود؟! .

ومما سجله المؤلف عن فواجع تلك الحضارة ، أنهم بدلاً من اتخاذها مدارج إلى الإيمان بالله ، وقد كشفت لهم أبحاثهم العلمية عن كثير من أسرار الله في كونه ، اتخذوها دركات إلى الكفر والإلحاد .

ويذكر لبعض علمائهم مثل ماكس بلانك وألبرت آينشتاين وفرنر هايزنبرج أبحاثاً عظيمة دمرت المبادئ التقليدية للمادة كانت كفيلة بأن تنقل الغرب إلى أوج الكمال الإيماني بالله ، ولكن قليلاً منهم من أدرك هذه الحقائق ، واعتقدوا أن هذه الدراسات توحى بوجود العالم الخارجي - يعني ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا ، وتعني أصول الإيمان الغيبية .

وعلى سبيل المثال يذكر مقولة ريتشارد سوينبرن في تعليق له على نظرية « الاحتمالات » العلمية : « إنه غير مقبول لأقصى الحدود عدم وجود الله » [ص ٣٠] .

• تعقيب :

ما كتبه الأستاذ هوفمان في هذا البحث : « ما الذي قام الإسلام ضده؟ » ، وإن لم يكن مطابقاً للعنوان ، كما قلنا في بدء الحديث عنه ، يعتبر من أروع ما كتبه في « الإسلام عام ٢٠٠٠ » .

سواء وصفه لمرديات الحضارة الغربية الحديثة ، وأوضاع المجتمعات الغربية من الداخل ، وما كتبه ناصحاً للمسلمين ضد التيارات المادية الجارفة ، وبخاصة « العولمة » التي يعمل الغرب - الآن - بكل إمكاناته لفرضها على العالم أجمع ، وبخاصة العالم الإسلامي ؛ لأن سياسة الغرب الحالية إما أن تقضي على العالم الإسلامي كلية ، وإما أن يحتويه ، والعولمة هي أفلح وسيلة لاحتواء الأمة الإسلامية .